

التدبّر الحقيقي والمظاهر المقدّسة: أين يلتقيان وأين يفترقان؟

المظاهر المقدسة: هل هي انعكاس حقيقي للتدين أم مجرد قشرة خارجية؟

لماذا نعبد الله؟ وما الغاية المنشودة من الأذكار والدعوات والصلوات؟ إلى أين يُفترض أن تقودنا هذه العبادات؟ هل ارتداء زيّ علماء الدين، أو نيل درجة الاجتهاد والمرجعية، أو المداومة على صلاة الليل، أو أداء مناسك الحج، أو إقامة مجالس العزاء والدعاء... هل هذه الأعمال هي دائماً أمور منجية ومفيدة؟ وهل الالتزام بالمظاهر الدينية والقيام بمختلف العبادات يجعل متّاً أشخاصاً أفضل تلقائياً؟

ما هو مقياس الأفضلية أساساً؟ وفق أي معيار يمكننا أن نقول إن شخصاً ما أفضل من آخر؟ هل من أدى الحج مرات عديدة أفضل من غيره بالضرورة؟ وهل من يداوم على صلاة الليل أفضل من الذي لا يصلّيها؟ وهل العالم الديني أفضل من الشخص العادي لمجرد كونه عالماً؟ هل من تلتزم بحجاب صارم هي بالضرورة أفضل من ذات حجاب خفيف أو من غير محجبات؟ ماذا يعني الميزان وما هو ميزان تقييم الأعمال في القيامة؟ كيف نقيس جودة عبادتنا وأثر أعمالنا المقدسة؟

غالباً ما نقيس مدى تدبّر الآخرين بناءً على مظاهر خارجية وأشكال دينية مقدسة. نتحدث عن المؤمنين والمتدينين، غالباً ما تستحضر أذهاننا صورة امرأة ترتدي الحجاب الشرعي، أو رجل ذي لحية يحمل المسبحة، ويواظب على حضور مجالس الذكر والدعاء، ويلتزم بالتردد على المؤسسات الدينية، والأضرحة، والمساجد. هذه النظرة التقييمية لا تقتصر على حكمنا على الآخرين فحسب، بل إننا غالباً ما نستخدم نفس هذه المعايير لتقييم مدى تدبّرنا نحن. لهذا السبب، ما إن نوفق لأداء صلاة الليل، أو زيارة بيت الله الحرام، أو القيام بمختلف المناسك الدينية، حتى نُدرج أنفسنا ضمن فئة أهل الإيمان، ونشعر بالاطمئنان تجاه التزامنا الديني.

لكن، إلى أي مدى تمثل هذه الرؤية فهماً صحيحاً للتدين؟ وهل الاكتفاء بالمظاهر المقدسة والانشغال بها يُعادل الإيمان وسلامة القلب حقاً؟ في الفقرات التالية، سنجيب عن هذه التساؤلات.

التدين له قواعد

كما ذكرنا في الأبحاث السابقة، فإن [نظام الخلق](#) في جميع أبعاده قائم على بنية رياضية دقيقة ومنظمة. وفي هذه الأنظمة الرياضية، لكل فعل أثر واقعي ونتيجة محددة.

فعلى سبيل المثال، من خواص الماء أنه يُبلل، ومن غير الممكن أن يُسكب الماء في مكان ما دون أن يُصيبه البلل. وكذلك من خواص النور أنه يُضيء، ولا يمكن أن يتسلل الضوء إلى مكان ويبقى ذلك المكان مظلمًا. ومن جهة أخرى، فإن البنى الرياضية لا تترك مجالًا للتخمين أو التوهّم عند قياس النتائج، بل تعتمد على معايير دقيقة وواضحة. ولا يمكن الادعاء بأن عملاً ما كان مؤثراً اعتماداً على الظن أو المعايير المتخيلة أو المصطنعة. فمثلاً، في العلوم التجريبية، لا يكتفي الطبيب بتخمينه أو بأقوال المريض الشفهية ليحكم على فاعلية دواءٍ ما، بل يقيس النتيجة من خلال الفحوصات والتحليل التي تُظهر ما إذا كان الدواء قد أحدث تغييرات حقيقية في جسم المريض أم لا.

وهكذا هو الأمر في مختلف المجالات: قيمة أي عمل تُقاس بنتائجه وثماره. فمن جلس طويلاً خلف مقود السيارة وتلقى تعليمات مدرب القيادة، لا بدّ في مرحلة ما أن يكون قادراً على قيادة السيارة بمفرده. فإن عجز عن ذلك، فهذا يعني أن الدروس لم تثمر، والنتيجة المنشودة لم تتحقق. ومن يتعلم اللغة الإنجليزية لا يُعدّ مترجمًا بمجرد حفظه للقواعد والمفردات، بل لا بدّ أن تظهر عليه القدرة على ترجمة النصوص بسلاسة، وإلا فإن تعليمه لم يكن مثمراً. فلا يكفي أن يقال إن فلاناً تلقى تعليماً في القيادة أو اللغة، بل لا بدّ أن تظهر هذه المهارات فعلياً في شخصيته وسلوكه، وتصبح جزءاً من كيانه. هذه القدرات التي تُسمى في علم الإنسان بـ "[اكتساب الاسم](#)"، لا تصدق إلا إذا تجلت في الواقع.

والأمر ذاته ينطبق على الدين والتدين. فالدين منظومة دقيقة وهادفة، تخاطب القلب والبعد الإنساني العميق فينا. إذا مرّت التعاليم الدينية من بوابة العقل ووصلت إلى القلب، فلا بدّ أن تترك أثراً واضحاً على الروح والنفس. وهذا الأثر يظهر في شكل العلاقات، وطريقة التفكير، وترتيب الأولويات، بل في جميع تفاصيل الحياة. وعليه، لا يمكن اعتبار الشخص متديناً بمجرد التزامه بالمظاهر الدينية المقدسة. فكما أن فاعلية الدواء، ومهارة القيادة، وقدرة الترجمة، لا تُثبت إلا من خلال النتائج العملية، فكذلك التدين لا يُقاس إلا من

خلال أثره الواقعي. لكن، ما هو هذا الأثر؟ وما هي النتائج التي تدل على التدين الحقيقي؟ ومن هم أولئك الذين يمكننا اعتبارهم متدينين بحق ومؤمنين صادقين؟

تعرف على صفات المتدينين الحقيقيين

كما أن معيار الولادة السليمة في مسيرة الجنين نحو الدنيا هو اكتمال النمو، فإن المعيار في مسيرة الإنسان من رحم الدنيا نحو الآخرة هو نيل "قلب سليم". بناءً على ذلك، لا يمكن لأحد أن يدعي الإيمان الكامل والصلاح لمجرد كونه طالب علم، أو مواظبًا على صلاة الليل، أو ملتزمًا بحجاب كامل، أو حاجًا بيت الله الحرام، أو ذا سابقة في ساحات الجهاد والخدمة المجتمعية. فالإنسان المؤمن والصالح له تعريف دقيق ومعيارى، ولا يمكن إطلاق هذه الأوصاف على النفس أو على الآخرين بناءً على التصورات أو المظاهر.

إن المؤمن الحقيقي هو من امتلك قلبًا سليمًا. وهذا القلب السليم هو نتاج مباشر لضبط نظام المحبة وترتيب محبوباته على نحو صحيح. فالقلب السليم هو الذي أدرك حقيقة "لا إله إلا الله"، وجعل الله تعالى في قمة كل ما يحبه ويرغب فيه. وبمجرد اختلال هذا الترتيب في الأولويات، وحلول أي شيء محل محبة الله في القلب، فإن الإنسان يهبط من مرتبته الإنسانية، حتى لو كان هذا الشيء مما يُعدّ مقدسًا بحد ذاته. قد يتبادر إلى الذهن سؤال مشروع: هل من يلتزمون بالمظاهر الدينية لا يحبون الله؟ في الرد على ذلك، نقول: إن محبة الله شيء، وجعله الأسمى والأعلى في حياتنا شيء آخر. فكل من يؤدي العبادات ويمارس الشعائر الدينية يحب الله بلا شك، لكن ليس كل هؤلاء يجعلون الله أولويتهم المطلقة ومحور حبه. والدليل على ذلك، أنه عند تعرضهم لمحنة تتطلب الاختيار بين رضا الله وما يتنافى معه من كمالات دنيوية أو شهوات نفسانية، يميلون إلى تفضيل المكاسب الدنيوية على نيل رضا الخالق.

بناءً على ما سبق، يمكننا تحديد أربع خصائص أساسية تميز المؤمن المتدين الحق:

- **الرحمة العامة (الرحمن):** أن يتصف المرء برحمة واسعة تشمل جميع المخلوقات، من بشرٍ باختلاف أعراقهم ومعتقداتهم، إلى الحيوانات والنباتات، بل وحتى الجمادات، فيكون بذلك متجسدًا لصفة "الرحمن".
- **الرحمة الخاصة (الرحيم):** أن يتمتع برحمة أخصّ تجاه المؤمنين، فيمنحهم عطفًا ورعاية تفوق غيرهم، مجسدًا بذلك صفة "الرحيم".

• السرور الروحي الدائم: أن يكون قلبه مفعماً بالسرور والبهجة، لا تعكره غشاوة حزن أو كآبة، وأن يتجاوز أي هموم قد تعترضه.

• الأمان الداخلي والثبات: أن ينعم بسلام داخلي راسخ، فلا تزعجه عواصف الحياة وتقلباتها، ويحافظ على اتزانه النفسي في وجه الشدائد.

كما يستحيل أن تشرق الشمس دون أن يُستنير بها الجو، يستحيل كذلك أن يؤمن الإنسان بالله رباً ومدبراً دون أن تتجلى صفات الله في نفسه. لذلك، فإن كمّ الصلوات والصيام التي نؤديها، أو مدى انشغالنا بالمظاهر المقدسة كالمساجد والهيئات والمزارات والذكر، ليس هو المهم بحد ذاته. بل الأهم هو مدى مساهمة هذه الأعمال في صقل شخصيتنا وارتقاء جوهرنا الإنساني. فإذا لم يتحقق هذا التطور والتكامل المنشود، فإن الانغماس في مظاهر مقدسة دينية، لا يفقد قيمته فحسب، بل قد يفسد القلب أكثر من الذنب نفسه. ولعل هذا يفسر ما ورد في النصوص الدينية من أن أحدهم قد يصلي خمسين عاماً ولا تُقبل له ركعة واحدة،¹ لأن التحول الداخلي المطلوب لم يحدث. إن العبادات والممارسات الدينية أشبه بالركوب في سيارة حديثة؛ يمكنها أن توصلنا إلى وجهتنا بسرعة تفوق الآخرين، ولكن بشرط أن نكون يقظين، محافظين على أنفسنا، مدركين لثقل هذه الرحلة ومسؤولياتها.

خلاصة الكلام: إذا أردنا أن نُعرّف التدين في جملة واحدة، فيمكننا القول إن «التدين هو السير من الرحمانية إلى الرحيمية»؛ فكلما تجلت صفات الرحمة العامة (الرحمانية) والرحمة الخاصة (الرحيمية) في كياننا بشكل أعمق، كنا أكثر تديناً وأقرب إلى الله.

لذا، فإن الأشخاص العدوانيين والعصبيين، الذين ينفجرون لأتفه الأسباب كما ينفجر المفرقح، والأشخاص المغرورين والمتكبرين، الذين يثورون ويقاطعون من يخالفهم الرأي، والحاسدين وذوي القلوب السوداء، الذين لا يطيقون رؤية نعم الآخرين ولا يستطيعون مواجعتهم بقلب نقي خالٍ من الضغينة، والقلقين والمكتئبين،

¹ الإمام الصادق (عليه السلام): "و الله إنّه ليأتي على الرّجل خمسون سنةً و ما قبل الله منه صلاةً واجدةً فأبى شيء أشدُّ من هذا" ميزان الحكمة ، ج ٥، ص ٣٨٧

الذين يفقدون توازنهم سريعًا أمام صدمات الحياة ويقعون في دوامة "ماذا أفعل؟!" فهؤلاء ليسوا مؤمنين، حتى لو التزموا ظاهريًا بكل مظاهر الدين، وصاموا جميع الأيام، وأحيوا الليالي بالعبادة.

في هذا الدرس، تناولنا أحد أخطر الآفات التي تهدد القلب السليم، وهي الانشغال بالمظاهر الدينية المقدسة دون الاهتمام بصلاح القلب والنفوس. وبيّنا أن هذا الانشغال، إن لم يكن مصحوبًا بالمراقبة القلبية والتزكية الداخلية، فقد يكون بنفس خطورة الذنب، بل أشد، لأنه يُفسد القلب تحت غطاء من القداسة. كما أكدنا أن التدين لا علاقة له بكمّ العبادات، بل المؤمن هو من يكون رحمانًا ورحيمًا مثل الله، ويكون قلبه قد بلغ السكينة والأمان من خلال الأتس بالله.

نأمل أن تُساعدنا هذه المعارف على أن ننظر إلى حال تديننا بعمق وبدقة أكبر.

Mentazer Mentazer

Mentazer Mentazer

Mentazer Mentazer

Mentazer Mentazer

Mentazer Mentazer